نـقد رَجَاء النَّـقَّاش لرواية "مَوْسِمِ الهِجْرَة إلى الشَّمَال" للطَّيِّب صالح

عبد الله عبد الرحمن محمود عبد الله [*]

تمثل "الرِّحلة إلى الغرب" في أغلبِ الإبداع الروائي الذي تناولَ هذا الجانب؛ رحلة في طلب العلم، وإنْ كان أكثرها يُؤكد فيه مُبدِعُها على تأكيدِ ذاته أو انتمائه إلى وطنه أو قوميته، فـ"توفيق الحكيم" أكّد في روايته "عصفور من الشرق"، على الالتقاء الثقافي بين الحضارتين الشرقيَّة والأوروبيَّة، بينما جسَّد "يحيى حقي" في "قنديل أم هاشم"، الاستفادة من علوم الغرب وتوظيفها في المُجتمع الشَّرقي دونَ المساس بمعتقداته وموروثاته، فهي – على حسب تعبير بعض الباحثين -، تُمثل بين الشَّرق والغرب رمزاً لـ ((التوفيق أو المصالحة))(١)، في حين اختلف عنهما "سهيل إدريس" في روايته "الحي اللاتيني"، الذي جعل الدافع الحقيقي وراء رحلته إلى فرنسا، هو "البحث عن المرأة"؛ حيث يتَّضح هذا من خلال مُخاطبة البطل لنفسه في الرواية عندما يقول: ((لا تحاول أنْ تحتج أو تُنكِر. أجل شرقك ذلك، لم يُغرك بالهربِ منه سوى خيال المرأة الغربيَّة، سوى اختفاء المرأة الشرقيَّة من حياتِك، إلا أنْ تطل في بسمةٍ لا تزيد الحرمان إلا حرماناً،... وأصبحتَ يوماً، فإذا كيانك كله ينزع إلى تقريبِ هذا البعيد، أو الانتقال إليه على وجه التدقيق، وها أنتَ اليوم عائشٌ فيه، هذا البعيد الذي أضحى قريباً حميماً بين يديك..))(٢)

وتنضم رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" لـ "الطيب صالح"، إلى تلك الروايات الثلاث، من حيث إنَّ ظاهرها هو الرِّحلة في طلبِ العِلم، بيدَ أنَّها

(*) باحث دكتوراه – قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة سوهاج.
هذا البحث من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: المنهج النقدي في النثر الفني لرجاء النقاش في ضوء الحركة النقدية الحديثة. وتحت إشراف: أ.د. سهام راشد عثمان - كلية الآداب – جامعة سوهاج & د. طلعت عبد العزيز أبو العزم (رحمه الله) - كلية الآداب – جامعة سوهاج – د. هناء عابدين عبد الله – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

١) د. عصام بهي: الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١ ، ص ٢٥

٢) سهيل إدريس : الحي اللاتيني "رواية" ، بيروت ، دار الآداب ، ط١٤ ، ٢٠٠٦ ، ص ٢٥ – ٢٦

تكشف عن مأربٍ آخر لبطلها، وهو الانتقام من الغرب، نتيجة لما فعله "المُستعمِر "الانجليزي في بلده "السودان" عندما احتلّه وفرض سيطرته عليه في بداية القرن العشرين، إذ كان لجوءُ بطل الرّواية "مصطفى سعيد" إلى "الجنس" مع جميع مَن عرفهنَّ مِن نساءِ الغرب، يمثل وسيلة انتقام حاول أنْ يثأرَ من خلالها لبلدِهِ ولونِه.

وهذا يتّفق مع رأي أحد الباحثين، الذي عدَّ فعل "مصطفى سعيد" الانتقامي مع أولئك النساء، بأنّه لم يكن سوى محاولة للتأكيد على مقولة مُهمَّة هي ((ضَعف الغرب المُستعمِر أمام قوَّة الشرق المُستعمَر، فهو يُحاول أنْ ينتقم – لا شُعُوريَّاً – لشرقِهِ الضَّعيف حضاريَّاً بما هو قويٌ فيه.))([1])

وربما كان من قبيل المُصادفة، أنْ يكون توقيت نشر هذه الرواية لأوَّل مرَّة في ديسمبر ١٩٦٦ في مجلة "حوار" اللبنانية ([2])، هو نفسه التوقيت الذي صَدَرَ فيه الميثاق الدولي لحقوق الإنسان، الذي وافقت عليه الجمعيَّة العامة لهيئة الأمم المُتَّحدة، إذ ((أكَّدت المادة الثامنة من الميثاق الثاني على المادة الرَّابعة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تُحرِّم الاسترقاق وتجارته بكافةِ أشكالهما.))([3])

ولَعَلَّ هذا يؤكد الظن لدى "المُتلقي"، بأنَّ "الطيِّب صالح" نشَرَ هذا النَّص الروائِي، مُتأثِّراً بموادِ هذا الميثاق، وانتصاراً لِلونِه وقوميَّتِه، وَفرِحَاً بالحُريَّة التي نالهَا العَبيد في العالم.

وقد شُغِل النُّقاد بهذا النَّص، فأبحروا في مضمونه، ولم يغفلوا شكله الفنّي من حيث الشخصيَّات والحبكة، والعلاقة بين الرَّاوي والبطل، واتَّجه بعضهم إلى النَّص مباشرة لتحليله والكشف عن ملابساته، في حين اتَّجَّه آخرون إلى التَّمهيد للنَّص والتَّقديم له قبل الخوض في ثناياه.

---

١) أد. عبد القادر شريف بموسى : ثنائية الرجولة والأنوثة في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح ، مقال بمجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية ، العام الثالث ، العدد١٧ ، مارس ٢٠١٦ ، ص ١١ - ١٢

٢) انظر : مجلة حوار، لبنان، عدد (٢٤ – ٢٥) ، ديسمبر ، ١٩٦٦ ، ص ٥ - ٨٧

٣) د. عبد السلام الترمانيني : الرِّق ماضيه وحاضره، الكويت ، (سلسلة عالم المعرفة)، عدد ٢٣ ، ١٩٨٥ ، ص ٢٣٩

والنَّاقد "رجاء النقاش" كان من ضمن هذه المجموعة الأخيرة، إذ استهلّ خطابه النَّقدي حولها بقوله:

((لم أصدِّق عيني وأنا ألتهمُ سطور هذه الرواية، وأنتقلَ بين شخصيَّاتها النَّاريَّة العنيفة النَّابضة بالحياة، وأتابع مواقفها الحارة المتفجِّرة، وبناءها الفنّي الأصيل الجديد على الرواية العربية .. لم أتصور أنَّني أقرأ رواية كتبها فنَّان عربي شاب...، لقد أخذتني هذه الرواية بين سطورها في دوامة من السحر الفنّي والفكري، وصعدت بي إلى مرتفعاتٍ عاليةٍ من الخيال الفنّي الروائي العظيم، وأطربتنِي طرَبَاً حقيقيَّاً بما فيها من غزارةٍ شعريَّةٍ رائعة.))([1])

ويمكن عد هذه "المقدمة الاستهلاليَّة" من جوانب البراعة الفنيَّة لدى "رجاء النقاش"؛ إذ إنَّ دهشته تجاه الرواية وبنائها الفنّي، وتجاه كاتبها، إنَّما هي وسيلة لجذب "المُتلقي" إليها، وتهيئته نفسيَّاً للدخول في غور النَّص.

بدأ "رجاء النقاش" نقده بعد هذا الاستهلال، راصداً لبعض الملاحظات الفكريَّة والفنيَّة في هذا السَّرد الفنّي، باسطاً أدواته التي تساعده في التَّحليل والوصُول إلى الفكرة التي أراد الكاتب أنْ يُجسدها، حيث وجَدَ أنَّ مشكلة "الصِّراع بين الشَّرق والغرب"، تفوح رائحتها من ثنايا هذا النَّص، وتمثّل هذا لديه من خلال تجسيد "الطيب صالح" لمُشكلة بطل الرواية، وهي مُشكلة "اللون" التي تُعدُّ سبباً رئيسيَّاً لمُعاناته في غربته، إذ رأى أنَّ الكاتبَ عبَّر عن هذه المُشكلة ((من خلال إنسان إفريقي ذي بشرة سوداء يذهب إلى لندن، ويصطدم بالحضارة الغربيَّة اصطداماً عنيفاً مُدوياً من نوع غريب. وعنصر اللون هنا له أهميته الكبرى، فالبشرة السّوداء أكثر من غيرها هي التي انصبَّ عليها غضب الغربيين وحقدهم المرير، وهي التي تفنَّن الغرب في تجريحها إنسانيَّاً قبل أنْ يكون هذا التجريح سياسيَّاً أو اقتصاديَّاً أو ثقافيَّاً.))([2])

ثم انبرى يذكر مأساة الإنسان الأسود قديماً، ليجعل "المُتلقي" مُستوعباً حجم المُعاناة لدى هذا البطل "الأسود"، موضحاً ((إنَّ الإنسان الأسوَد قد عاش قروناً من التعذيب والإهانة على يد الغرب، وتركت هذه القرون في النَّفس

١) رجاء النقاش : أدباء معاصرون ، بغداد، دار الحرية للطباعة، ط١، ١٩٧٢ ، ص ١٠٠
٢) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠١

الإفريقيَّة جروحاً لا تندمل بسهولة،...إنَّ هذا البطل الروائي الجديد ينتقل من قلب إفريقيا السوداء إلى لندن، والحوادث الرئيسيَّة في الرواية تجري في أوائل هذا القرن حيث كانت إفريقيا تغوص في ظلم وظلام لا حدَّ لهما.))([1])

يُعدُّ تفسير "رجاء النقاش" هنا لمشكلة "اللون" وربطها بالتاريخ، أداة من أدواته النقديَّة للوصول إلى رؤية "الطيب صالح" التي تُمثل بحث الإنسان عن كرامته المهدرة، وتبيان الأثر النفسي السيئ للتمييز العنصري.

ومن المُلاحظات التي وجدها "رجاء النقاش" تُمثل موقفاً حضاريَّاً في الرواية، هي أنَّ البطل "مصطفى سعيد" ذابَ وانصهرَ في ذلك المُجتمع الغربي، محاولاً مساواة نفسه بهم، والتخلص من نظرتهم المُتعالية للشَّرق:

((وَصَلَ هناك إلى أعلى درجات العِلم، وأصبَحَ دكتوراً لامِعاً في الاقتصاد، وإنْ كانت ثقافته قد امتدَّت واتَّسعت حتى شملت كثيراً من ألوان الأدب والفن والفلسفة وأصبَحَ مصطفى سعيد مُدرساً في إحدى جامعات إنجلترا ومُؤلفاً مرموقاً، ولكنَّه في حياتِهِ الخاصة ارتبط بعلاقاتٍ وثيقةٍ مع أربع فتيات إنجليزيات، وانتهت هذه العلاقات جميعاً نهايات حادَّة دامية.))([2])

وهذه النهايات الدَّامية، جعلت البطل يعود إلى موطنه الأصلي "السَّودان"، علَّه يجد نفسه من جديد في مُجتمعه الذي وُلِدَ فيه، الأمر الذي أيَّده "رجاء النقاش" بقوله:

((فهذه هي البداية الصَّحيحة والسَّليمة. لن يجد نفسه في لندن مهما أخذ من عِلمها وثقافتها، ...لن يجد الطمأنينة أبداً إلا إذا عادَ إلى النَّبع، وألقى وراءَ ظهره بقشور الثقافة الغربيَّة، وأبقى على جوهرِ هذه الثقافة ثم مَزْجَ هذا الجوهر بواقع بلاده. هنا فقط سوف يُصبح إنساناً مُنتِجَاً.. إنساناً فعَّالاً له دورٌ حقيقيٌّ في الحياة.))([3])

---

١) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠١
٢) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٢
٣) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٢ - ١٠٣

عدَّ "رجاء النقاش" هذا التَّمازج بين الثقافتين الشرقيَّة والغربيَّة، أنَّه يُمثل رؤية حضاريَّة لدى "الطيِّب صالح"، إذ إنَّه استفاد من الغرب علميَّاً وفكريَّاً، ووظَّفَ تلك الاستفادة في موطنه الأصلي.

وَوَجَدَ "رجاء النقاش" أنَّ تلك الرُّؤية التي ارتآها "الطيِّب صالح" لبطل روايته، تتَّفقُ مع رؤية "توفيق الحكيم" لبطله "محسن" في روايته "عصفور من الشرق"، و "يحيى حقي" لبطله "إسماعيل" في قصته "قنديل أم هاشم"، حيث آثر كل واحد منهما، الرجوع إلى موطنه الأصلي لتوظيف عِلمه الذي اكتسبه من الغرب على مجتمعِهِ الشرقي ([1]).

والتفتَ "رجاء النقاش" من قبل لمُشكلة "الصِّراع بين الشَّرق والغرب"، حيث عبَّر عنها بإثارته عدَّة تساؤلات، لخَّص من خلالها أساس هذا الصِّراع في "موسم الهجرة إلى الشمال":

((كيف تواجه الشعوب الجديدة هذه المُشكلة.. كيف تُعالجها وتتصرَّف معها ؟..هل تترك هذه الشعوب ماضيها كله وتستسلم للحضارة الغربيَّة وتذوب فيها وتقلدها تقليداً كاملاً ؟ هل تعود هذه الشعوب إلى ماضيها وترفض الحضارة الغربيَّ ة وتعطيها ظهرها وتنكرها إنكاراً لا رجعة فيه ؟ هل تتَّخذ موقفاً ثالثاً يختلف عن الموقفين السَّابقين.. وما هو هذا الموقف الجديد ؟))([2])

وهذا الثراء الفنِّي في تكثيف "رجاء النقاش" للاستفهام في خطابه النَّقدي، يُؤدي إلى معانٍ كثيرة، وأغلب الظن أنَّ المعنى أو الغرض هنا الذي يصل إلى "المُتلقي"، هو الإفهام والتَّقرير بما تحمله هذه الرواية وغيرها من أشكال السَّرد، من رسالةٍ واضحةٍ؛ لإدراك مدى فداحة تلك المُشكلة التي واجهت المُثقفين، فعبَّروا عنها أدق تعبير، كلّ حسب رؤيته للغرب، لتوظيف ذلك الصِّراع أو الاستسلام له.

ومن ثَمَّ، فإنَّ عَرْض "رجاء النقاش" لصُورة الصِّراع بين الشَّرق والغرب وصَدَاهَا لدى الأدباء، والاستعانة بالتَّاريخ الذي يُسلط الضَّوء على مُعاناة الإنسان الأسود عبْرَ القرُون السَّابقة، وطرح الأسئلة التي تجعل "المُتلقي"

١) انظر : رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٣
٢) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٠ - ١٠١

مُدركاً لذلك الصِّراع، وواعياً لتلك المُعاناة، كلَّ هذا من المُمكن عدَّه وسائل تقديم، مهَّدَ بها "رجاء النقاش" الطَّريق إلى النَّص، للدخول إلى ثناياه، وإلقاء الضَّوء على شخصيَّة البطل وما فيها من غموض.

تمركزت رؤية "رجاء النقاش" النقديَّة لهذه الرواية حول ثلاثة محاور، هي: "الجنس"، و"الحب"، و"الجريمة"، حيث وقف على ملامح كلَ محورٍ بالتَّحليل، مُسلطاً الضَّوء على أسبابه ودوافعه.

فمحور "الجنس"، رأى من خلاله أنَّ ((العلاقة بين مصطفى سعيد والفتيات الانجليزيَّات.. لم تتجاوز العلاقة الجسديَّة، لم يكن هناك بين هذه العلاقات علاقة حب حقيقيَّة، بل كانت كلها علاقة شهوة جامحة، فالفتيات الانجليزيَّات يرينَ في مصطفى سعيد مظهراً للقوَّة البدائيَّة الوافدة من إفريقيا، إنَّه بالنسبة إليهنَّ ليس إنساناً يستحقُّ علاقة عاطفيَّة خالصة بكلَ جوانبها الروحيَّة والماديَّة معاً، فهو كائنٌ غريب، يحملُ رائحة الشرق النَّفاذة، وهو حيوان إفريقي يستحق أنْ تلهو به هؤلاء الفتيات، ويستمتعنَ به فقط.))([1])، فقد حدَّد "رجاء النقاش" هنا، نوع العلاقة معهنَّ، بأنَّها علاقة استمتاع فقط لا غير.

ثم فسَّر هذه العلاقة بأنَّها قائمة على الاستغلال، مُستخدماً التَّوجيه السِّياسي لمَسَارِهَا، تأكيداً منه أنَّها تمثِّل صُورة من صُور الصِّراع بين الشَّرق والغرب، الذي تُجسده الرواية، موضِّحاً بقوله: ((وهذا النَّوع من العلاقاتِ يُذكرُنا ولا شك بالعلاقاتِ بين الاستعمار والبلاد المُحتلَّة، فالاستعمار يستغل بلداً من البُلدان ويستنزفها بقسوة لكي يستمتع بما فيها من ثروات وإمكانيَّات، ولو أنَّنا لاحظنا تمسَّك الاستعماريين ببُلدان إفريقيا على سبيل المثال لوجدنا أنَّ هذا التمسَّك فيه رائحة خارجيَّة سطحيَّة من المحبَّة والعِشق بل والهَوَس العاطفي. لقد كان الفرنسيُّون يتركون الجزائر بعد استقلالها وهم يذرفون الدموع الغزيرة، وفي جنوب إفريقيا نجد أنَّ الأوروبيين لا يُريدون أنْ يتركوا الأرض الإفريقيَّة، إنَّهم يتمسكون بها كما يتمسَّك العُشاق بشيء عزيز عليهم....ولكنهم في حقيقتهم ليسوا عُشَّاقاً، وإنَّما هُم يستغلُّون ويستثمرُون الأرض والنَّاس.))([2])

---

١) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٣ - ١٠٤

٢) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص١٠٤

ثم انتقل من هذه الرؤية السياسيِّة لتلك العلاقة، إلى تفسيرها سيكولوجيَّاً، إذ نفى أنْ تنتج مثل هذه العلاقة عاطفة الحب؛ فقد كان البطل نفسه ((مشحوناً – من الداخل – ضدَّ أوروبا، وضدَّ التشويه الإنساني الذي حملته أوروبا إلى إفريقيا والإفريقيين في نفس الوقت.))([1])

ولا شكَّ في أنَّ أيَّة علاقة بين "الرَّجل" و"المرأة"، مثَّلت "الكراهيَّة" أحد طرفيها، فإنَّ مصيرها هو الفشل الحتمي.

ثم انتقل إلى مظهرٍ آخر من مظاهر الجنس في الرواية، وهو علاقة "مصطفى سعيد" بالفتاة الانجليزيَّة التي تزوجها، والتي أنهاها هو بقتلها، حيث كان "الجنس" بينهما حالة مرضيّة شاذة، إذ رصدها "رجاء النقاش" ووضحها بقوله: ((تعوَّدت أنْ تُثيره بشتَّى الوسائل والأساليب العنيفة دون أنْ تسمح له بالاقتراب منها ...، تُريده وتُنكره، بل وتُنكر على نفسها أنَّها تريده. وظلَّت هكذا تُعذبه وتعمل على تهديدِ أعصابه بلا رحمة حتى هدَّدها بالقتل فلم تعبأ بالتَّهديد. وجاء يوم قرَّر فيه أنْ يقتلها بالفعل، فاستسلمت للقتل كما تستسلم لأيّ علاقة جسديَّة تُريدها في هوس مجنون، ... كانت تجد في مصطفى سعيد مثالاً مُجسَّداً للعنف الإفريقي، وكان لديه ولا شك الكثير من "السَّاديَّة"([2]) أو الرَّغبة في تعذيبِ الآخرين، كما كان لديها أيضاً الكثير من "الماسوشيَّة"([3])، أي الرَّغبة في تعذيب النفس.))([4])

حدَّد "رجاء النقاش" هنا نوع العلاقة بين "مصطفى سعيد" و"الفتاة الانجليزيَّة"، من خلال وُقوفه على مصطلحي "السَّاديَّة" و "الماسوشيَّة"، التي يتعامل بها الأطباء في مجال الطب النَّفسي، عند تشخيصهم لمثل هاتين الحالتين وغيرهما، ولعلَّ "المُتلقي" يُلاحظ امتزاج المعارف لدى "رجاء النقاش"

---

١) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٤

٢) Sadism، نسبة إلى المركيز دي ساد ، الذي كتب في القرن الثامن عشر عن شخص يشعر بالمتعة الجنسية من آلام الآخرين. (د. لطفي الشربيني: معجم مصطلحات الطب النفسي ، الكويت ، مركز تعريب العلوم الصحية ، د.ت ، ص ١٦٢

٣) Masochism، من الانحرافات الجنسية التي يكون مصدر اللذة والإشباع فيها التعذيب والألم الذي يعاني منه الشخص نفسه ، وينزله به الغير، وتنسب إلى الكاتب النمساوي مازوخ .(د. لطفي الشربيني : المعجم نفسه ، ص ١٠٦)

٤) رجاء النقاش : أدباء معاصرون ، (مرجع سابق) ، ص ١٠٥

وتنوَّع ثقافته، وربما كان هذا من مُنطلق أنَّ "النَّاقد" لابد أنْ يمتلك من المعرفة الشموليَّة، ما يُساعده في إضاءةِ النَّص، وتحليل صُوره ورُمُوزه.

ومن المُمكن أنْ يكون "الطيِّب صَالح"، قد استخدمَ هذه الصُّورة الشَّاذَّة لـ "الجنس"، كي تكون رمزاً للاستعمار الانجليزي، الذي تفنن في إذاقة الشرق الذي استعمره؛ سوءَ العذاب، من إذلال للبشر واسترقاقٍ للعبيد، دونَ مُراعاةٍ لآدَمِيَّتِهم.

ولكن يبدو أنَّ "رجاء النقاش" لم يقف على دلالةِ هذه الصُّورة سياسيَّاً، بل وقف عليها اجتماعيَّاً، موضحاً بقوله: ((ليس وراء هذه العلاقات كلها أيّ رغبة في بناء أسرة، ولا أيّ رغبة في إنجاب أولاد، ولا أيّ رغبة في مواصلة حياة مُنتِجة.. الجنس للجنس، هو شعار أولئكَ الفتيات الانجليزيَّات مع هذا الفتى الإفريقي.))([1])

ومن ظاهرِ خِطابه هنا، نُلاحظ تأكيد "رجاء النقاش"، على أنَّ الحياة الماديَّة العابثة، هي التي تطغى على الغرب في ظلَ علاقتهم مع الشَّرق، حيث لا مكان فيها للمشاعر ولا للعواطف الإنسانيَّة.

أما محور "الحُب"، فقد أشار "رجاء النقاش" إلى أنَّ البطل كان في حياته حُبَّان ناجحَان، هما: الحُب بينه وبين السيِّدة الانجليزيَّة "إليزابيث"، والحُب بينه وبين الفتاة السَّودانيَّة "حسنة بنت محمود"، ولاحَظ أيضاً أنَّ حبَّ "مصطفى سعيد" للسيِّدة "إليزابيث"، يشوبه نوع من عاطفةِ الأمُومة، وكانت هي تجدُ فيه روح الشَّرق الجميل، لكونها عاشت مع زوجها المُستشرق في القاهرة، وتأثرت بالنَّاس هناك، ولهذا عبَّر "رجاء النقاش" عن حُبِّها له بأنَّه ((جزء من حُبِّها للشَّرق وفهمها له، وأحبته لأنَّها أحسَّت بامتيازه وذكائِهِ وصِفاتِه الإنسانيَّة الأخرى، ولم تُفكر فيه أبداً على أنَّه "لعبة إفريقيَّة" مُثيرة. لذلك كان حُبَّها ناجحاً، وظلَّ مُشتعلاً حتى النِّهاية، وإنْ طغتْ عليه جوانب الأمُومة بسبب فارق السِّن ..، لقد اكتشفتْ الشَّرق من جانبه الإنساني لا من جانبه الجسدي والمادي.

١) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٥

لذلك أحبَّت مُصطفى سعيد ووجدت سعادة غامرة في هذا الحُب، ولم تطلب من مُصطفى شيئاً، بل كانت تُساعده كلَّما احتاجَ المُساعدة.))([1])

فتفسيره لنجاح هذا الحُب واستمراره، يُعدُّ "مُلاحظة" من المُلاحظات النَّفسيَّة، حيث لاحظ أنَّ فارقَ السِّن بينها وبينه، قد أوجَدَ بينهما العلاقة التي تربط الأم بابنها، أو الابن بأمِّه، بما فيها من عطفٍ وحنانٍ، إضافة إلى كونها علاقة لا مجال للجنس أنْ يكون مُتمثلاً في أركانِها؛ لما فيها من جانبٍ إنسانيٍّ واحترام مُتبادل.

وقد مَثَّلت هذه العلاقة لدى "مصطفى سعيد"، نوعاً من الاستقرار العاطفي، وبالرَّغم من أنَّ علاقته بأمِّه كان فيها بعضٌ من العاطفةِ والحنان؛ إلا أنَّها كان لها دور في أنْ يعيش حياته بحُريَّة تامَّة دون قيود، وعندما أرادَ السَّفر ساعدته بالمَال، فعَاشَ بعدها في الغربَةِ يبحث عن تلك العاطفة التي افتقدها، إلى أنْ وجدهَا في تلك السيِّدة الانجليزيَّة.

أما العلاقة بين "مصطفى سعيد" والفتاة السَّودانيَّة "حسنة بنت محمود"، فقد اجتمع فيها "الجنس" مع "الحُب"، وكان من ثماره، الزواج والإنجاب والاستقرار، إذ أكَّد "رجاء النقاش" على هذه النَّتيجة بقوله:

((وهذا الحُب هو وحده الذي أنجَبَ مصطفى سعيد – من خلالِهِ – وَلَدَيْن...هنا الجنس له دور في بناءِ الحياة، والحُبَّ مبنيٌّ على الاقتناع والمُساواةِ والرَّغبةِ الصَّادقة في إقامةِ علاقةٍ إنسانيَّة صحيحة.))([2])

ووَجَدَ أيضاً، أنَّ دلالة إنجاب "مصطفى سعيد" من زوجتِهِ السَّودانيَّة؛ توحي بالمعنى الإنساني، من حيث إنَّها كانت الحُب الحقيقي الوحيد في حَياتِـهِ([3]).

وهذا الازدواج بين "الجنس" و "الحُب"، ساعَدَ البطل في الوُصُول إلى الاستقرارِ النَّفسي ونتجَ عنه إنجاب الأولاد، فالغاية هي تكوين أسرة، بينما كانت غايته من "الجنس" في لندن، هو الانتقام من الغرب لما فعله في الشَّرق من فتنٍ، ونهبِ ثرواتٍ، وتمييزٍ عُنصري، لذلك لم ينتج عنه أي استقرار، ومن ثَمَّ،

١) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٦
٢) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٦
٣) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٦

فإنَّ محور "الجنس" يُمثل بين الشَّرق والغرب، علاقة عكسيَّة في المفهوم والتوظيف.

وتُمثل هذه الرؤية التي رآها "رجاء النقاش"، – على ما يبدو – وَلَعَهُ بالبحثِ عن الأشباهِ والنَّظائر أو المتناقضات في تبيان نوع علاقة "البطل" بالسيِّدتين "الانجليزيَّة" و "السُّودانيَّة"؛ ليجعل "المُتلقي" يفهم أبعاد تلك الظاهرة التي سيطرت على بطل الرواية.

أما "الجريمة"، فإنَّها تُمثل في السَّرد الفنّي، وجبة دسمة لأفكار الأدباء، لكونها تفتح باباً للتعبير عمَّا بداخلهم من خواطر (١)، وهي بالتالي تجعل "المُتلقي" يبني أفكاراً عليها ورموزاً تختفي وراءها.

وهذا ما استنبطه "رجاء النقاش" من "الجريمة" في هذه الرواية، حيث عمد إلى تفسير قتل "مصطفى سعيد" لزوجته الانجليزيَّة، تفسيراً مزدوجاً ما بين السِّياسة وعلم النفس، مُشيراً إلى أنَّ((جريمة مصطفى سعيد هي قتل للوجدان الأوروبي المُعقد، والذي يعلن كراهيته واحتقاره لإفريقيا، ثمّ يتمسَّك بها، ويقبض عليها بأصابعه، بل وينشب أظافره فيها حتى لا تضيع... فموقف أوروبا من إفريقيا هو تظاهر بالكره، يقابله حرص على إفريقيا وتمسك بها تمسكاً مُستبداً وعنيفاً. وهذا هو نفسه موقف الزوجة الانجليزيَّة من زوجها الإفريقي مصطفى سعيد... كانت تُبدي له كُرهاً وتمنُّعاً واحتقاراً، وهي في الحقيقة تُريدُه لتعتصره وتحقق مُتعتها ثُمَّ تُعامله بعد ذلك كالكلب.))(٢)

فهذا الرَّبط الفنّي بين الموقفين، يُمثل لدى "رجاء النقاش"، تركيزه على الأشباهِ والنَّظائر، ومن ثَمَّ فإنَّهما وجهان لعملةٍ واحدةٍ هي "الكره والاستغلال".

أما الجريمة الأخرى، فهي جريمة قتل "حسنة بنت محمود" لزوجها المُسن "ود الريِّس"؛ إذ أجبرَت على الزواج منه مُكرهة بعد وفاةِ زوجها "مصطفى

١) انظر : عبد المنعم الجداوي : الجريمة في الرواية العربية ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٩٠ ، ص ٧

٢) رجاء النقاش : أدباء معاصرون ، (مرجع سابق) ، ص ١٠٨

سعيد"، فسلمت له نفسها ليلة الزفاف، ثم امتنعت عنه مدَّة طويلة، الأمر الذي جعله يشتاط غضباً، ثم انتهى الموقف بينهما، بأنْ قتلته ثمَّ قتلتْ نفسها ([1]).

فسَّر "رجاء النقاش" هذه الجريمة ، بأنَّها ثورة على التقاليد البالية التي تمتهن المرأة، وتقلل من شأنها ودورها في المجتمع، فقال إنَّها ((قد قتلت التقاليد القديمة التي تعوَّدت أنْ تجعل من المرأة شيئاً من المتاع المادي وليست "إنسانة" ذات عاطفة خاصة مستقلة. إنَّها قتلت رمزاً من رموز الماضي بتقاليده ونظرته الخاطئة إلى الحياة...، جريمة حسنة هي ثورة ضدَّ التقاليد التي تحول المرأة إلى لعبة..))([2])

ولهذا عدَّ "رجاء النقاش"، جريمة كل من "حسنة" و "مصطفى"، بأنَّها رمز للرَّغبة في التحرر من الاستبداد والظلم، فقال موضِّحاً إنَّ ((جريمة "حسنة" هي قتل للوجدان الإفريقي بتقاليده القديمة بحثاً عن وجدان إفريقي جديد، وجريمة "مصطفى سعيد" قتل للوجدان الأوروبي باستبداده وعنفه ورغبته في السيطرة بحثاً عن وجدان أوروبي جديد خال من التعقيد والمرض))([3])

ومن ثمَّ، فإنَّ "رجاء النقاش" حلَّل شخصيَّة كل من "مصطفى سعيد" و"حسنة بنت محمود"، وفق منظور مزدوج بين السِّياسة وعلم النَّفس، وهذا لم يمنعه من الالتفات إلى الرواية من حيث شكلها الفنِّي، إذ جذبه فيها، عباراتها الجميلة، ولغة الحوار، ومزج كاتبها بين الأصالة والمُعاصرة في آنٍ واحدٍ؛ حيث وصف عباراتها بأنَّها ((تعتمد على لغة عربيَّة في غاية الصفاء والأناقة والشاعريَّة. إنَّها لغة ناصعة مصقولة مغسُولة في نهر من الفنِّ المُقدَّس. لغة غنيَّة بالأضواء والظلال، مليئة بالشحنات العاطفيَّة، بعيدة عن التبذير والثرثرة.))([4])

---

١) انظر : الطيب صالح : موسم الهجرة إلى الشمال "رواية" ، بيروت ، دار الجيل ، ط١ ، ١٩٩٧ ، ص ١٥٠ -١٥٣

٢) رجاء النقاش : أدباء معاصرون ، (مرجع سابق) ، ص ١٠٧ - ١٠٨

٣) رجاء النقاش : أدباء معاصرون ، (المرجع نفسه) ، ص ١٠٨

٤) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٩

أما الصياغة التي أجادها الكاتب في أسلوبِ الحوار، فرآها "رجاء النقاش" قريبة الشَّبه من صِياغة "نجيب محفوظ" للحوار لدى شخصيَّات رواياته؛ إذ وجده ((يستعين بروح اللهجة العاميَّة، ويحافظ على الصِّياغة الفصيحة البسيطة، لذلك تشعر وأنت تقرأ الرواية بالرَّوح الشعبيَّة الأصيلة، دون أنْ تضيع في غابات لهجة محليَّة صعبة مُعقدة.))([1])

وليس بغريبٍ على "رجاء النقاش" تشبيهه لـ "الطيِّب صالح" بـ"نجيب محفوظ"؛ إذ كان له باع طويل مع الأخير، على المُستويين "الشَّخصي" و "النَّقدي"، الأمر الذي جعله يتَّخذ إبداع "نجيب محفوظ"، مقياساً لجودة السَّبك والصِّياغة في إبداع الروائيين اللاحقين له.

وأمَّا عن مزج "الطيِّب صالح" بين الأصَالة والمُعاصرة في آنٍ واحدٍ، فإنَّ "رجاء النقاش" عبَّر عنه بأنَّه ((امتزاج خصب أصيل بين فضائل الرواية التقليديَّة مثل التَّصوير الدَّقيق العميق للشخصيَّات، وخلق الحكاية المُمتعة التي تشد الأنفاس حتى النهاية، وفضائل الرواية الحديثة التي تعتمد على تصوير الأحلام، والعالم الداخلي للإنسان...، ولذلك جاءت روايته في النهاية رواية عصريَّة من ناحية، ولكنها من ناحية ثانية تفوح بالأصالة والارتباط بالتراث الروائي العربي والعالمي معاً. إنَّها بعبارة أخرى "رواية عربيَّة متطوِّرة" تُمثل خطوة جديدة في الأدب الروائـــي.))([2])

ومن خلال رصده لتلكَ الجوانب الفنيَّة في الرواية، تظهر لدى "المُتلقي" سِمة من السِّمات الفنيَّة والجماليَّة، التي يتميز بها أسلوب "رجاء النقاش" النَّقدي، وهي ميله إلى استخدام "الأشباه والنَّظائر والمُتناقضات" بين الكلمات، مثل إشارته لـ "الأصالة" و "المُعاصرة"، فهما كلمتان بينهما تناقضٌ في المعنى. ومن ثَمَّ، فهذه السِّمة من المُمكن وصفها بأنَّها خاصيَّة إيضاح وتفسيرٍ للمعنى، وأيضاً عدَّها من وسائل الجذب والتشويق التي ساقها "رجاء النقاش" في خِطابه النَّقدي.

ومن الملاحظات الفنيَّة التي تتعلق بمضمون الرواية، وقوف "رجاء النقاش" أمام محور "الجنس" مرة أخرى، إذ عدّه جزءاً أساسيَّاً من بنائها

---

١) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١٠٩

٢) رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١١١

الفنِّي، وعنصراً مهماً في خدمة مضمونها، حيث رفضَ حذفه منها، وطالبَ الأوساط الأدبيَّة أنْ تُواجه هذا الموقف بجرأة وشجاعة، الأمر الذي يُحقق الحريَّة الفكريَّة للأديب، عملاً بمبدأ "مواجهة الحقيقة لا الهروب منها"([1]).

ومن اللافت للانتباه، أنَّ موضوع "الجنس" يلقى اهتماماً واسعاً في الأوساط "العلميَّة" و"الطبيَّة"، بينما يتم تحاشي طرحه في الأوساط "النقدية" و "الاجتماعيَّة"، لِمَا يترتَّب عليه من خدشٍ للحياء والأخلاق والمشاعر الإنسانيَّة.

وعلى الرَّغم من أنَّ "رجاء النقاش" لا يتَّفق مع "الطيِّب صالح" في تناوله المُفرط للجنس في روايته ([2])، إلا أنَّنا نجده قد سلَّط الضَّوء عليه وتناوله بالتَّحليل، بهدف عرض سلبيَّاته وإيجابيَّاته، لكونه يمثل ظاهرة مرضِيَّة وحياتيَّة في الوقت نفسه، ورأى أنَّه كان الوسيلة التي ساعدت "مصطفى سعيد" بطل الرواية، للخروج من أزمته النفسيَّة تجاه الغرب، وانتصاره عليها.

ملخص البحث:

إنَّ "رجاء النقاش" بتسليطه الضوء على مضمون هذا النص الروائي، وشخصيَّة كاتِبُه، نجده قد استنبط أبعاد النَّص، وفسَّر ما يختبئ وراءه من دلالاتٍ دون مُبالغة، حيث عمد إلى حدسه وذائقته الأدبيَّة في استشفافِ الظواهر والتجارب التي مرَّت ببطل الرواية، مُتجنِّباً بعض الشيء، الخوض في القواعد والأصول الشكليَّة لنقد النَّص، ومن ثمّ استطاع أنْ يكشف عمَّا لدى "الطيِّب صالح" من عُمقٍ فنِّيٍّ، وصدقٍ في التَّعبير عن مُشكلة الصِّراع بين الشَّرق والغرب، بما فيها من أزماتٍ تخص محوري "الجنس" و "اللون"، بوصفهما أساس ذلك الصِّراع عند الرجل الإفريقي.

وإذا كان رأي النَّاقد "محمد مندور" حول أثر إقحام علم النفس على الأدب والنَّقد، والذي يقول فيه: ((علم النفس قد يساعد إذن في فهم نفسيَّة الكُتَّاب وتحليل الشخصيِّات الروائيِّة التي يخلقها أولئك الكُتَّاب، ولكنَّه قد يظلمنا أيضاً في ذلك الفهم وهذا التحليل))([3])؛ فإنَّ "رجاء النقاش" –على ما يبدو- سارَ على هذا الرأي، مُتحاشياً الانزلاق في هذا المجال النَّفسي، مُكتفياً بإبداء

---

١) أنظر : رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١١٢

٢) أنظر : رجاء النقاش : المرجع نفسه ، ص ١١١

٣) د. محمد مندور : في الأدب والنقد ، القاهرة ، نهضة مصر للطباعة ، ١٩٨٨ ، ص ٤٠

المُلاحظات النَّفسيَّة، التي تُنير الطَّريق أمام "المُتلقي"، لفهم الشخصيَّة التي تدور حولها الرواية، ورَبَط تصرُّفاتِها وتفسيرها وفق الحَدَث المُصاحب لها.

ويُضاف إلى تلك المُلاحظات النَّفسيَّة، أنَّه ضمن نقده بومضاتٍ تاريخيَّة، وسياسيَّة، وجماليَّة، وفنيَّة، ومن ثَمَّ، فإنَّ المنهج الذي سار عليه "رجاء النقاش" في عموم الرواية، يُمكن تسميته بـ "المنهج التكاملي".

هنا مسألة تبقى مُهمَّة، قد تتبادر إلى ذهن "المُتلقي"، وهي: هل كان "رجاء النقاش" في نقده لهذه الرواية، من أنصار نظريَّة "الفن للفن" أم نظريَّة "الفن للمُجتمع" ؟

وللإجابة أقول: من خلال ما سَبَق، يمكن مُلاحظة أنَّ "رجاء النقاش" تميَّز بوعيٍ ثقافيٍّ شامل، ثريٍّ بالجوانبِ الفنيَّة والموضوعيَّة، ممَّا يؤكّد لدينا أنَّه لم يغفل الشكل الفنّي للرواية من إخراج، وحبكةٍ، وعباراتٍ، وحوارٍ، وصياغةٍ فنيَّةٍ للأسلوب، وأيضاً وقوفِه على المضمُون بما فيه من معانٍ صوَّرت الواقع النَّفسي للبطل، الأمر الذي خلقَ لديه دافع الانتقام، ليتحرَّر من سيطرة الغَيْر.

ممَّا يدفع بالقول، إنَّه ربط بين "الشَّكل" و "المضمون"، ولم يفصل أحدهما عن الآخر، وأوجَدَ تلاحُماً بين النظريَّتين، وصَهَرَهُمَا في بَوتقةٍ واحدة. ومن ثم، فهو ناقدٌ التزم بالرسالةِ الإنسانيَّةِ للأدب وأخلص لها.

مصادر ومراجع البحث:

١- الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال "رواية"، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩٧

٢- رجاء النقاش: أدباء معاصرون، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٢

٣- سهيل إدريس: الحي اللاتيني "رواية"، بيروت، دار الآداب، ط١٤، ٢٠٠٦

٤- د. عبد السلام الترمامينى: الرق ماضيه وحاضره، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد٢٣، ١٩٨٥

٥- أ. د. عبد القادر شريف بموسى: ثنائية الرجولة والأنوثة في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"، مقال بمجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية، العام الثالث، العدد١٧، مارس، ٢٠١٦

٦- عبد المنعم الجداوي: الجريمة في الرواية العربية، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩٠

٧- د. عصام بهي: الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١

٨- د. لطفي الشربيني: معجم مصطلحات الطب النفسي، الكويت، مركز تعريب العلوم، د.ت

٩- د. محمد مندور: في الأدب والنقد، القاهرة، نهضة مصر للطباعة، ١٩٨٨